

الفصل العاشر

المسألة الجزائرية

كتب وكيل القنصل الفرنسي في القاهرة في ٣ أبريل سنة ١٨٣٠ رسالة إلى پولنيك Polignac أشار فيها إلى عزيمة إبراهيم الماضية ، وانهماكه في الإشراف على أعمال دار الصناعة البحرية في الإسكندرية ^(١) . والحق أن القائد لم ين لحظة واحدة منذ عاد من بلاد اليونان عن أداء واجبه . فقد وصل إلى الإسكندرية في ٩ أكتوبر سنة ١٨٢٨ ، ولم يحل اليوم السادس عشر من يناير سنة ١٨٢٩ حتى شرع في إصلاح الحال الإدارية بمديرية الشرقية . نعم إنه كان يطبق فيها القانون الجديد الذي سنه والده ^(٢) ؛ ولكنه اضطلع بقسط وافر من هذا الإصلاح ، جعل أباه يصرح للقنصل الفرنسي في ٢١ يولية أن إبراهيم قد حمل عنه عبئاً ثقيلاً ^(٣) . ولم يكن العمل الذي اضطلع به إبراهيم ليخفف به العبء عن والده بالعمل الذي لا يكاف عناء . وكان محمد علي إدارياً يظناً كما كان هو يحذو حذوه ، ويدل على ذلك ما كتبه عنه بزوني Pezzoni الذي عين قنصلاً للروسيا بعد دروشتي ، فقد أبلغ رئيسه في ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٠ أن « إبراهيم الذي أصبح الآن على رأس الإدارة المدنية والعسكرية لا يعمل من التفتيش على أعمال هذه الإدارة ؛ وكثيراً ما تراه مرتين أو ثلاثاً في اليوم عند الخزانة يراقب

(١) محمد علي وحملته الجزائر (١٨٢٩ — ١٩٣٠) تأليف جورج دون طبعة الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة سنة ١٩٣٠ ص ٣٣٠ .

(٢) قطاوى في كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٣٢٩ .

(٣) المصدر عينه جزء ١ ص ٣٥٤ .

أعمال موظفيها . ولما وجد أن دار المحيكة التجارية لا تصلح لأن تكون مكاناً للقضاء ، أمر بأن تخرج منها الأرائك وتستبدل بها كراس ؛ وعُين كاتب خاص ليدون محاضر الجلسات ، وأصدر الأوامر إلى جميع الإدارات أن تكتب الحسابات بالطريقة المزدوجة (الدوبيا) ، وأن تستخدم الأرقام الأوربية ^(١) .

لكن هذا القنصل عينه قد كشف عن جانب آخر قائم من هذه الصورة ؛ إذ كتب في تقرير آخر أن « السجون قد غصت بالمدينين البائسين ، زجهم فيها إبراهيم لأنهم عجزوا عن الوفاء يديونهم ^(٢) » . على أن الأثر السيء الذي تتركه هذه العبارة يخفف منه ، إن لم يمحاه كله ، ما كتبه هذا القنصل في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٢٩ :

« دعا إبراهيم أعيان البلاد والكشاف ورؤساء المصالح الحكومية ، ليعقد منهم مجلساً مؤلفاً من أربعين عضواً . وستكون مداولاتهم سرية . ويقال إن الغرض من دعوتهم هو أن يبحثوا في الوسائل المؤدية إلى تحسين حال الشعب ووقف الهجرة وقطع دابر الفساد وتشجيع الأعمال الزراعية . ويرجى أيضاً أن تؤدي مداولاتهم إلى تخفيف عبء الضرائب . وليس منا من لا يود معرفة الوسائل التي ستتم بها هذه الإصلاحات كلها » .

ودعا إبراهيم أيضاً أكابر رجال الدين . ولسنا نعرف بالضبط ما يقصده القنصل « بأكابر رجال الدين » ، ذلك أن رجال الدين الإسلامي هم جميع المسلمين ، وأن الإسلام لا يعترف بوجود سلطات دينية ، وليس من مبادئه أن يكون بين العبد وخالقه وسيط ، ولا وجود للقساوسة فيه . وأكبر ظننا أن الذين دعاهم إبراهيم

(١) المصدر عينه جزء ١ ص ٣٥٦ . لعله يقصد الأرقام الهندية . (المغرب)

(٢) المصدر عينه جزء ١ ص ٣٥٠ .

إلى الاجتماع هم العلماء أى المتفقهون فى الدين . ومهما يكن من ذلك فإن الشيء المهم هو أنه لم يبق شك فى أن إبراهيم كان لا ينقطع ساعة عن العمل . كما أن التقرير لم يغفل وصف غيرته وشدة بأسه ، فقد جاء فيه :

« يخشى الناس فى مصر إبراهيم وترتعد فرأئهم فزعاً إذا سمعوا اسمه ؛ ولذلك تشعر الدوائر القنصلية بأن هذا الخوف قد يرفع عن كاهل الأهالي شيئاً مما يعانونه من ظلم المديرين وحكام الأقاليم ، إن لم ينجحهم من هذا الظلم كله » . وكان هذا الرجل الذى يبعث الخشية من الله فى قلوب الخونة من الموظفين لا ينقطع عن الحركة ، بل كان دائم التنقل فى طول البلاد وعرضها ، فتراه يوماً يتفقد الجند عند الشلال الثانى ، وتراه فى اليوم التالى عائداً إلى الإسكندرية ينهب الأرض على راحلته ، ليشرف على إنزال بارجة إلى البحر . ولما كانت مصر بلداً زراعياً قبل كل شيء ، فقد كان للفلاح النصيب الأكبر من عنايته . ويؤكد جيمس أغسطس سانت جون James Augustus St. John الذى زار مصر فى الوقت الذى نتكلم عليه ، أن إبراهيم قد أدخل فى مصر الحديثة زراعة أشجار الزيتون^(١) . ولما كانت الألسنة قد لمجت بذكر مظالم السخرة فإننا لا نرى بأساً من أن نورد هنا ما قاله عنها ذلك المؤلف :

« يحرص إبراهيم باشا على أداء أجور عماله فى أوقاتها ، فيدفع للطفل ثلاثين بارة ولمن يشتغلون بحفر الأرض والسائقين ورؤساء العمال والأقوياء من العمال أجراً متوسطه قرشان فى اليوم . ولما علم إبراهيم باشا بوجود اثنتى عشرة شجرة من خيار الشنبر^(٢) فى حدائق الشيخ إبراهيم رئيس طائفة الشيعة بالقاهرة ، أمر

(١) سانت جون فى كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ٤٤٥ .

(٢) شجر له ثمر كالخروب يتداوى به وهو من الفصيلة البقولية موطنه الهند ، وقد أسكنوه إفريقيا الوسطى وأمريكا الجنوبية الخ . (المعرب)

في الحال أن تغرس مئات من هذه الأشجار على جانبي إحدى طرق العجلات^(١). وعن إبراهيم عناية خاصة بزراعة القطن ، وحاول إدخال أشجار الأناناس إلى مصر . وأهم في نظرنا من جده المتواصل وسرعة حركته وصلابته ، كياسته وحسن تصرفه ؛ ذلك بأن الكياسة ليست من الصفات التي توجد عادة في الحارب الخشن المتأهب . وقد يكون سبب انصاف إبراهيم بهذه الفضيلة الغدة القيمة ، أنه لم يكن جنديا من هذا الطراز .

والذي يجمعنا نهتم بهذه الصفة من صفات إبراهيم أنه وهو الرجل ذو الشخصية القوية ، الذي كان لا يتفق مع أبيه في أهم مبادئ تقوم عليه سياسته الاقتصادية ، لم يجعل هذا الاختلاف في الرأي سبباً لتعكير صفاء العلاقات بينهما . ولقد بقي إبراهيم متمسكا بآرائه ؛ وكان والده يعرف ذلك منه لأنه طالما أشار إليه في التقارير الرسمية ، وكثيراً ما ذكر هذه الآراء الكتاب المعاصرون . ونحن نقصد آراءه في نظام الاحتكار الذي كانت تسير عليه الحكومة المصرية في ذلك الوقت .

وسنترك الآن مسألة الملكية العقارية لأنها مسألة معقدة شائكة ولا تمت بصلة إلى موضوعنا ، ونحصر اهتمامنا فيما يسميه دودول Dodwell « سياسة الباشا التجارية » ، وهي السياسة التي جعلته أعظم تجار القطر الذي كان يعرف شؤونه . فقد ذكر هذا الكاتب في كتابه « منشئ مصر الحديثة » أنه « لم يكنه أن كان يرغم الفلاح على الزراعة ، بل كان يعين نوع ما يجب عليه أن يزرعه في بعض الأراضي ، على أن يبيع المحصول لخازن الحكومة بثمن معين . . . وقد تمت موارد القطر على يديه نماء لم يعهد له مثيل منذ قرون ، ولاح في وقت من الأوقات أن

(١) سانت جون في كتابه السالف الذكر ص ٤٤٦ .

الباشا قد حقق ناحية من نواحي الفكرة الاشتراكية على أقل تقدير^(١) . ويقول الدكتور وليم هولت ياتس Dr. William Holt Yates في كتابه الذي نشره في عام ١٨٤٣ :

« إن إبراهيم لا يوافق على كثير من آراء أبيه الاقتصادية ، ويعتقد أن نظام الاحتكار والاحتصاب لا بد أن يؤدي إلى تدهور ثروة البلاد . ويشبه من يسير على هذا النظام برجل يقطع الشجرة الطيبة ، التي سوف تثمر ثمرًا جنيًا عظيمًا في موسمها ، ليحصل منها في العاجل على مقدار تافه من الفاكهة الفجة . ولكنه لا يجهل أن الباشا يمنع عناده من الأخذ برأيه ؛ ولذلك اعتزم أن يحسم كل أسباب النزاع بينه وبين أبيه بالابتعاد عنه ما أمكنه ذلك ، مع خضوعه لسلطانه وإطاعة أوامره . ولسكنني لا أخطئ كثيرًا إذا قلت إن إبراهيم سيظهر فضله بعد وفاة أبيه ؛ ذلك بأن قواه العقلية سيكون نموها قد اكتملت ، وانطلقت من عقالها ، بعد أن ظلت حتى الآن معطلة لأن صاحبها مقيد غير طليق . ومع ذلك فالناس في مصر يحلونهم ويخشونه خشيتهم محمدا عليا نفسه في بعض الشؤون التي أطلقت فيها يده ، وجعل له فيها الرأي الأعلى ، لا يتدخل والده في أمرها . وقد عرف الناس ذلك وتهيبات عقولهم للاعتراف به رئيسًا لهم بمجرد وفاة الوالي^(٢) . وبينما كان إبراهيم يقوم بواجبه في خدمة والده دون أن يمحو بذلك شخصيته ، كانت السياسة الفرنسية تسعى لتجرفه في تيار دسائسها ومؤامراتها . وذلك أن صعاiba قامت وقتئذ على ما يظهر بين فرنسا وداي الجزائر ، منشؤها ديون يستحقها بكرى وبوزناخ ، وهما رجلان من اليهود الجزائريين ، وردا غلالا للحكومة

(١) ددول في كتابه السالف الذكر ص ٢١٨ .

(٢) ياتس في كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٧٢ .

الفرنسية في عهد الإدارة^(١) ، ولم تكن هذه المسألة لتؤدي إلى قطع العلائق بين البلدين ، لولا أن حسينا داي الجزائر لطم القنصل الفرنسي ديغال Deval في وجهه بمذنبته في ٣٠ إبريل سنة ١٨٢٢ . ويلوح أن الحكومة الفرنسية لم تؤد الدين الذي عليها ، بل حصرت همها في طلب التعويض عن هذه الإهانة ، وحاصرت ثغر الجزائر . ولولا معارضة رئيس وزراء فرنسا الكونت ده قليل Compte de-Villèle ، لأقدم وزير البحرية الدوق ده كليرمونت تنير Duc de Clermont-Tonnerre على إرسال حملة حربية . وكذلك أصر المسيو ده لافروناي M. de La Ferronnaye وزير الخارجية ، على أن تسوى المسألة بطريق المفاوضات . لكن إهانة أخرى وجهت إلى الحكومة الفرنسية ، فأثارت ثائرتها ودفعتها إلى العمل . وذلك أن النار أطلقت في ٣ أغسطس سنة ١٨٢٩ على سفينة فرنسية تحمل راية المهادنة ؛ فقررت الحكومة إرسال حملة حربية إلى الجزائر . ولم يحل اليوم الرابع عشر من شهر يونية سنة ١٨٣٠ حتى نزلت الجنود الفرنسية في سيدي فروخ^(٢) .

واقعد يستنتج القارئ من بعد ما بين هذه التواريخ التي ذكرناها أن الحكومة الفرنسية قد أطرقت على المضض طويلا ؛ وذلك لأنه يلوح له أن جدالا قام في ٣٠ إبريل سنة ١٨٢٧ بين القنصل الفرنسي وداي الجزائر ، منشؤه دين لتاجرين من يهود تلك البلاد يستحقانه منذ عام ١٧٩٩ ، وأن القنصل الفرنسي قد لطم على وجهه أثناء الجدل ، وأن النار أطلقت على سفينة فرنسية

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الثالثة عشرة تحت عنوان الجزائر المجلد الأول

ص ٦٥٠ .

(٢) سيدي فروخ أو سيدي فاروش رأس وخليج صغير في الجزائر على بعد ٢٥ كيلو

متراً من مدينة الجزائر إلى غربها انظر دائرة المعارف للبستاني . (المعرب)

تحمل راية المهادنة في ٣ أغسطس سنة ١٨٢٩ ، وأن الجنود الفرنسية لم تنزل في أرض الجزائر إلا في الرابع عشر من شهر يونية سنة ١٨٣٠ . لكن الحقيقة أن الحالة الدولية في أوروبا فيما بين ٣٠ إبريل سنة ١٨٢٧ و ٣ أغسطس سنة ١٨٢٩ كانت مضطربة اضطراباً يمنع الحكومة الفرنسية من أن تتورط في مجازفات جديدة . وهذا الاضطراب لا يهمنا أمره ؛ وإنما الذي يهمنا في قصتنا هذه أن وزارة الخارجية الفرنسية كانت فيما بين ٣ أغسطس سنة ١٨٢٩ و ١٤ يونية سنة ١٨٣٠ تدبر الخطط لتحمل إبراهيم على أن ينتقم لفرنسا من داي الجزائر .

وكان الذي أشار بهذا الرأي هو برناردن دروفتي . Bernardin Drovetti قنصل فرنسا لدى محمد علي . ويلوح أنه في أول يوم من سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، أي وقت سماعه بمهاجمة السفينة الفرنسية ، كتب إلى البرنس ده پولنيك رئيس مجلس الوزراء الفرنسي بما يأتي :

« بين فرنسا وداي الجزائر نزاع تحتم عليها كرامتها أن ينتهي بطريقة تليق بها ؛ وقد دلت التجربة على أن الوسائل التي استخدمت حتى الآن لا تكفي لأن تنيلها هذا الغرض ؛ ودون إرسال حملة حربية إلى شواطئ بلاد المغرب صعبة وأخطار عدة ؛ ومهما بلغ نجاح الحملة فإنها تكون كبيرة النفقة ، وقد تثير الغيرة في نفوس إحدى الأمم المنافسة لنا . وقد يكون من المستطاع تخريب مكان من هؤلاء اللصوص المسلمين بأيدي طائفة من أبناء دينهم ، عرفوا شيئاً من النظام الحربي واتصلوا أكثر منهم بالمدنية . . . ولا يبعد أن يرضى محمد علي بإرسال جيش إلى هذه الأصقاع يعاون فرنسا على إدخال هذه البلاد في حضيرة المدنية^(١) . »

لكن الطمع والجشع والاستكلاّب على المال ، وهي الصفات التي اتصف

(١) دون في كتابه « محمد علي وحملة الجزائر » ص ١ .

بها الجنرال بوييه Boyer رئيس البعثة الحربية التي أرسلها لويس الثامن عشر إلى محمد علي ، كانت أكبر العوامل في حبوط مشروعات دروڤتى . وإليك رسائله الرسمية تفصح عن هذا ، إذ يلوح أن دروڤتى رأى من واجبه أن يبلغ رئيسه في ٧ أغسطس سنة ١٨٢٦ ما يأتي :

« لقد كان من واجبي قبل الآن أن أشرح لسعادتكم الخطة التي يسير عليها القائدان بوييه Boyer ولقرون Livron ومن معهما من الضباط . لقد تمكنت في نفوسهم من يوم مجيئهم فكرة خاطئة عن طبيعة مهمتهم التي وافقت عليها حكومة جلالة الملك ، والتي ترمى إلى تمهيد السبيل للحوادث التي تمسكتنا في يوم من الأيام من الاستيلاء على هذه البلاد . لكن رئيس البعثة ما عثم أن أظهر أنه لم يأت إلى هنا ليعخدم مصالح فرنسا بل ليملا خزائنه بالمال . ولذلك ترك الأمر كله إلى السكولونل جودن Gaudin النشاط الطموح ^(١) »

وجاء في تقرير آخر كتبه دروڤتى في ١١ يناير سنة ١٨٢٧ أن الجنرال بوييه قال : « إنه لم يأت إلى هذه البلاد إلا ليحمل من المال ما يكفي لمهر بناته » . وقال القنصل بعد ذلك إن مرتبه الضخم وجشعه الشديد قد مكناه من بلوغ هذه الغاية ^(٢) . ثم دب ديبب البغضاء في نفوس الضباط الفرنسيين ، وأدى التنافر بينهم إلى استقالة الجنرال بوييه وتسعة من زملائه الضباط من خدمة الحكومة المصرية في ١٤ أغسطس سنة ١٨٢٦ ، وعودتهم إلى فرنسا ^(٣) .

وكان من نتائج هذه الاستقالات والظروف التي تشرحتها هذه التقارير القنصلية أن محمدا عليا وإبراهيم أصبحا شديدي الحيلة والحذر عندما فاتحهما في هذا

(١) دريو في كتابه « كريد والمورة » الذي نقلنا عنه من قبل ص ١٨٩ .

(٢) المصدر عينه ص ٢٢٩ .

(٣) المصدر عينه ص ١٩٣ .

الأمر ميمو Mimaut وهودر Huder في نوفمبر سنة ١٨٢٩ . ومع أن إبراهيم لم يحضر الاجتماعات التمهيدية بين السياسيين الفرنسيين والباشا ، فإن اسمه يتردد كثيرا في المذكرة التي بعث بها الموظفان الفرنسيان ؛ بل نستطيع أن نقول أكثر من هذا ، نقول إن شخصيته كانت المحور الذي يدور حوله الاقتراح كله ، حتى بلغ الأمر أن كتب بولنيك في بعض التعليمات الإضافية التي بعث بها إلى ميمو وهودر في ٧ يناير سنة ١٨٣٠ يقول :

« وقد يصبح هذا العمل (الاتفاق المقترح بين فرنسا ومحمد علي) في الوقت المناسب عاملا من أكبر العوامل في قوة محمد علي وإبراهيم . ويهمننا جدا أن لا يوقعه محمد علي وحده ، بل أن يوقعه معه إبراهيم . ذلك بأن إبراهيم شديد الاحترام لكلمته ، ويعتد نفسه شخصا مرتبطاً بهذا العمل برباط قوى إذا أمكن الحصول على توقيعه . زد على ذلك أن من واجبنا أن نخطا للمستقبل . ولكن الإشارة إلى ما عساه يحدث في المستقبل أمر دقيق ؛ ولذلك يحسن أن يتولى الأمر المسيو هودر لأنه ليست له الصفة الرسمية التي للمسيو ميمو . وأهم ما يجب أن يحرص عليه هو أن يوقع إبراهيم هذا الاتفاق ، لأنه هو الذي سيعقد له لواء الحملة »^(١) .

وقد صيغت المذكرة التي قدمت إلى محمد علي في أول اجتماع بينه وبين ممثلي الحكومة الفرنسية بحيث يفهم منها أن محمدا عليا كان صاحب الاقتراح الأول . فقد جاء في مستهل هذه المذكرة أن « ملك فرنسا يوافق على أن يرسل محمد علي حملة لإخضاع بلاد البربر والقضاء على القرصنة ؛ ثم تقول المذكرة بعد ذلك إن الحرب سيتولاها جنود الباشا وحدهم ، وإن الأسطول الفرنسي سيعاونه

(١) دون في كتابه « محمد علي وحملة الجزائر » السالف الذكر ص ٩٠ .

إذا طلب إليه ذلك . وفي المذكرة مواد أخرى ليست ذات خطر كبير ، إلا واحدة منها ورد فيها ذكر قرض تقدمه فرنسا لمصر ، ويبلغ مقداره عشرة ملايين من الفرنكات ، يدفع عند ما يبدأ سير الحملة . ويتبع المذكرة ملحق ينص بعصريح العبارة على أن الحملة يجب أن يعقد لواؤها لإبراهيم^(١) .

وتؤيد التعليمات المرسلة إلى المسدوين الفرنسيين هذا الإصرار على ذكر إبراهيم فقد جاء فيها :

« يجب أن تكون الحملة كبيرة العدد مهيبة ، ولا بد أن يتولى قيادتها إبراهيم نفسه لأن في وجوده على رأسها أكبر ضمان لنجاحها »^(٢) .

وكانت الوزارة الفرنسية تخشى أن يقودها رجل من الأتراك العاجزين الفاترى المهمة . ولذلك أصر البرنس ده بولنيك على أن يتولى إبراهيم قيادتها لوثوقه من شجاعته ولاعتقاده أن الجيش الفرنسى لا بد أن يشترك في آخر الأمر مع الجنود المصريين . ولذلك كتب الأمير يقول : « إن الملك حين يضع كبار رجال البحرية تحت إمرة إبراهيم ليوليه ثقة لم يولها أحداً غيره »^(٣) . وكما أن الفرنسيين أرادوا أن يمهّدوا بشؤون الحملة العسكرية إلى إبراهيم ، فإن محمداً علياً وكل أمر المفاوضات إلى مهارة ابنه السياسية . وكتب بذلك مذكرة صيغت في هذه العبارة القوية الموجزة :

« صديقي المحترم دروشتي : تسلمت خطابك ، وعرفت ما فيه ، وكلفت ولدى إبراهيم أن يجيبك عنه »^(٤) .

(١) المصدر عينه ص ٢٩ .

(٢) المصدر عينه ص ٩١ .

(٣) المصدر عينه ص ٩٢ .

(٤) المصدر عينه ص ٣٣٠ .

ويلوح أن كل ما حدث عند ما استقبل محمد علي ميمو وهودر في الاجتماع الذي سبقت الإشارة إليه ، هو تقديم أوراق الاعتماد وتبادل التحية وعرض المذكرة التي يحدد فيها الفرنسيون مقترحاتهم . فلما بدأ العمل الجدى فضل الباشا أن يتنحى عنه ويقدم عليه ابنه إبراهيم . وقد أظهر هذا الجندى في أداء تلك المهمة من المهارة والدراية ما تشهد به كل فقرة في التقارير المرسلة إلى باريس .

وليس يخفى أن إبراهيم كان ألوفاً بطبعه ، وأنه لم يكن شئ يسره أكثر من اختلاطه بجنده والتحدث إليهم . على أن المندوبين الفرنسيين مع ذلك يشيران في تقاريرهما إلى « صمت إبراهيم وحزمه » ، ويقولان إنه في أثناء الاجتماع الفاصل لم يكن ينطق بأكثر من قوله : « قال أبى وكتب أبى »^(١) . وقبل ثلاثة أسابيع من هذا اليوم السالف الذكر وصلت وزارة الخارجية الفرنسية الأنباء عن النشاط الجم والإرادة^(٢) القوية اللتين اتصف بهما ذلك السياسى المعقود اللسان ، الذى عرض على الدبلوماسيين فى يوم ٢ مارس سنة ١٨٣٠ خطاباً كتبه لهم والده ، « وقرأه عليهم بنفسه كلمة فكلمة ، ثم أمر به فترجم لهم أثناء حضوره »^(٣) . وانقطعت المفاوضات فى آخر إبريل سنة ١٨٣٠ . وربما كنا مغالين فى تأكيد ما كان لجشع الجنرال بوييه من الأثر فى حبوطها . لقد عرفنا أن الفرنسيين كانوا يعلقون على العامل الشخصى فى الحملة أهمية كبيرة ؛ ولذلك أصرروا على أن يتولى إبراهيم قيادتها . وليس ببعيد أن يكون الأثر السيئ الذى أحدثته البعثة العسكرية ، قد جعل القائد المصرى يبغيض المشروع من أوله إلى

(١) المصدر عينه ص ٢٥٤ .

(٢) المصدر عينه ص ٢٥٢ .

(٣) المصدر عينه ص ١٩١ .

آخره . وقد يكون من أسباب حبوطها أيضاً أنه قد ساء ما كانت ترمى إليه المذكرة من إفهام الناس أن صاحب الاقتراح هو محمد علي ، في حين أن دون يقول في كتابه القيم عن هذه الحملة خاصة إن برناردن ودروقتي هما صاحبا الاقتراح^(١) . ومهما يكن السبب الحقيقي في حبوط المشروع فإن السبب الرسمي لقطع المفاوضات لم تكن له علاقة بهذه الأمور كلها ، وإلى القارئ هذا السبب : ذكرنا من قبل أنه عرض على محمد علي حسب نص المذكرة الأولى عشرة ملايين من الفرنكات ، تدفع له حينما تبدأ الحملة في المسير . لكن الباشا أصر على أن تؤدي له على الفور أربعة ملايين من الفرنكات ، وأن تقدم له أربع بوارج حرية تحمل كل منها ثمانين مدفعا هدية خالصة^(٢) . ويلوح أن المسألة المالية في اقتراح الباشا كانت يمكن تسويتها ؛ لكن مسألة السفن كانت العقبة السكود في سبيل التسوية ؛ فقد دلت على أن محمدا عليا وإبراهيم لم يكونا يكتفيان بالإشراف على الأعمال الحربية البرية ، بل كانا يرغبان في أن يكون لهما قسط وافر ، إن لم يكن لهما القسط الأوفر ، من المظاهرة البحرية . وقد يكون لهما غرض أبعد من هذا الغرض ؛ فربما فكرا فيما يكون لهذا الحلف من أثر في نواياهما في سوريا . وذلك بأن إبراهيم كان على الدوام يطمح ببصره نحو الشرق لا نحو الغرب ، وكان يتطلع إلى جعل مصر نواة لدولة عربية عظيمة ؛ وكان احتلال الشام متفقا مع هذه الآمال ، أما فتح الجزائر فإنه يحوله عن غرضه الأسمى .

وأيقن إبراهيم أن عداء بريطانيا سيقم أمامه من العراقيين مالا يستطيع التغلب عليه ، وما يحول بينه وبين الغرض الذي تتوق إليه نفسه . ولولا أنه

(١) المصدر عينه ص ٥ .

(٢) المصدر عينه ص ١٧ .

لم يكن يشعر بأن « الفرنسيين لا يفقهون شيئاً في بناء السفن أو إدارتها » ؛ ولولا أن سلوك بوييه وزملائه قد هاج هائجاً ، لجاز أن يغتنم هذه الفرصة التي أتاحها له البرنس ده بولنياك ، ويعقد حلقة مع فرنسا . قد يكون ذلك وقد لا يكون ، وكل الذي نعلمه علم اليقين أن ما يذكرونه من الأسباب لحبوط المفاوضات السياسية قلما يتفق مع الحقيقة كلها . وأكبر ظننا أن إبراهيم كان في أثناء المحادثات التي امتازت « بسكوته الحازم » يخفي مقاصده شأن الدبلوماسي الواسع الحيلة والتدبير .

obeykandi.com



محمد علی باشا